البوذية

يُقال أن للبوذية أتباعاً أكثر من أي دين آخر. ويزعم بعضهم أنها ملجأ حصين لخمس مائة مليون من الأنفس البشرية. ولكن الأرقام تخدع كثيراً. وهذا الزعم يستند في الغالب إلى أن بلاد الصين بوذية كلها، بيناً يتقاسمها في الواقع أديان ثلاثة هي البوذية والكنفوشية والتاوستية، كما يتقاسم اليابان أديان ثلاثة أيضاً هي البوذية والكنفوشية والشنتوية.

مذاهب البوذية المختلفة

والبوذية تشمل أشياء كثيرة. فهناك المذهبان الكبيران الشمالي والجنوبي، وينقسم كل منهما إلى عدة من الطوائف. والمذهب الشمالي بكتبه المقدسة في اللغة السنسكرينية منتشر في الصين واليابان والتبيت ونيبال وجازة وسومطرا. أما المذهب الجنوبي وكتبه المقدسة باللغة البالية فمنتشر في بورما وسيلان وسيام. ولو أن أتباع هذا الأخير أقل عدداً من الأول، فإنه أقرب كثيراً إلى الأصل ولم يداخله إلا القليل من العناصر الغريبة في تطوره التاريخي الطويل. ولذا سنقتصر في بحثنا الآن على هذا الأخير لأنه يمثل الدين الأصلي الذي علم به بوذا.

المؤسس

من الحقائق المقررة أن شخصاً هو الذي أسس البوذية. ولقد حاول بعض العلماء إحاطته بأسطورة شمسية، شأن كثير من شخصيات التاريخ

الغارقة في القدم، ولكن الدليل على وجود هذا الشخص جلي لا غموض فيه. ولكن تعذر علينا التمييز بين ما هو حق وما هو أسطوري في تاريخ حياته، فإن الوقائع الأصلية ثابتة مؤكدة. والمعروف أن مؤسس هذا الدين قد ولد في أواخر القرن السادس أو أوائل القرن الخامس قبل المسيح في مدينة صغيرة تقع بين مدينة بنارس وجبال الحملايا شمال نهر الكنج المقدس. وكان أبوه (راجا) زعيم قبيلته وأطرق على أسرته لقب "غوتاما". واسمه الشخصي "سدهارتا" (أما كلمة "بوذا" ومعناها "المستنير" فليست اسمه الشخصي بل هي اللقب الذي خلع عليه. ولعل "غوتاما" أكثر الألقاب ذيوعاً، وهو اللقب الذي نطلقه عليه في بحثنا).

كان ابن ملك، تحدر من سلالة عريقة المحتد، وامتاز بقوى في العقل والبدن. ثم تزوج في سن مبكرة من ابنة أحد الأمراء. ونظر إذا بالمستقبل الباهر يمتد تحت قدميه. على أن نفسه لم تهدأ على حال من القلق، ففي غمرة النعيم الذي كان يرفل فيه حامت حول مخيلته أسئلة لم ير لها حلاً. وطفق العقل الحائر ينقب حول معنى الحياة، حتى أمست الحياة عبئاً تنوء به الظهور. وأعقد مشكلة طغت على نفسه، وهو يتمرغ في نعماء الحياة وأطايبها، هي مشكلة الآلام البشرية. فإن النعماء التي كان فيها مقيماً، جعلت هذه المشكلة شوكة مسننة في نفسه. وعنه. تروى الأقاصيص عن التقائه برجل شيخ قد أفنى المرض بدنه، أو رؤيته جثة قد أمعن فيها الفساد بلاءً، فترعبه تلك المناظر وتأخذ عليه السبيل. ولم يطل به الأمر حتى لجأ إلى حياة الزهد والتقشف مؤملاً أن تزاح الغشاوة عن عينيه، ويغور

إلى أسرار معنى الحياة بعد أن يتحرر من ربط الأسرة وهموم العالم، وينصرف إلى التأمل وإماتة الجسد.

بحثه عن النور

وبعد إذ غادر أسرته ارتمى في أحضان بعض المعلمين من النساك فتلقى عنهم تعاليم البراهمة. وقد صاغ النظام الذي وضعه فيما بعد على أساس مطارحاته مع ذلكم النفر من الزاهدين. على أن أساليب تقشفهم ودمدمتهم بالألفاظ المألوفة، مع إغراق عقولهم وتفكيرهم في براهما– كل هذه لم تجده شيئاً.

وكانت الخطوة الثانية أن لجأ وخمسة من أترابه إلى غابة هادئة للاختلاء، والتأمل، وترويض النفس. وهناك قسا على جسده وعقله وأذلهما أيما إذلال، فكان غذاؤه اليومي حبة من الأرز. وجاهد جهاداً عنيفاً لإدماج نفسه في الروح الإلهي، كما فعل قليل من زهاد الهنود، حتى حُسب أعظم القديسين شأناً في قومه. وفجأة أحس عقم هذه الجهود الضائعة، وفي شجاعة نادرة صارح زملاءه بأن تجربته قد فشلت، وعاد يتناول طعامه العادي. فما كان من أصدقائه الخمسة الذين زاملوه في خلوته إلا أن مضوا في حال سبيلهم آسفين. وكانوا قد أملوا فيه كثيراً حين رأوا غيرته المتقدة، والآن يرونه يخيب آمالهم خيبة مريرة.

أما الخطوة الثالثة فكان سنة كاملة قضاها في تأمل عميق، وفي عزلة كاملة. وكانت الشكوك والمخاوف قد تنازعت نفس غوتاما، فهو قد اقتنع أن إماتة نفسه وإذلالها لم يجدياه نفعاً، وهو ما يزال حائراً مضطرباً يتخبط

على غير هدى. فساورته الأفكار أن يعود إلى موطنه ويعدل عن سعيه. وفي ذات يوم جلس يتناول طعام الإفطار تحت ظل شجرة صارت فيما بعد مقدسة في نظر البوذيين، حتى نظروا إليها نظرة المسيحيين إلى الصليب. وهناك قضى اليوم كله، والليل كله، في نزاع داخلي، حتى إذا بزغ نور الفجر، أشرق عليه نور الحق ينبئه أن شقاء الحياة وعناءها وضجرها تنبعث من رغبات النفس، وأن الإنسان مستطيع أن يكون سيد رغباته لا عبداً لها، وأن في مقدوره الإفلات من هذه الرغبات بقوة الثقافة الروحية الداخلية ومحبة الآخرين. فهجر غوتاما مشهد التريث والانتظار، وطفق يحمل رسالته إلى العالم، رسالة قد تفشت على قلبه بأحرف من نار. ولقد حدثته نفسه أن يحتفظ بهذه الرسالة لنفسه، ويستمتع بالنور دون أن يشرك فيه أحداً، لأنه حشي أن يقصر الناس عن فهم رسالته قبل أن يختبر طور التدريب والمران الذي اختبره هو. وقيل إن الباعث الذي دفعه إلى أن يكون مرسلاً ومبشراً هو محبته للبشرية ورغبته في أن يشاطره الناس هذا الحق الجديد المهذب للنفس. والبوذيون الأتقياء يشكرون الله في غير انقطاع لأجل هذا الصنيع الذي أتاه بوذا وأنكر فيه ذاته.

حياته وتعاليمه

ذهب أولاً إلى الرفاق الخمسة الذين هجروه، وحين سمعوا قصته، قبلوا رسالته وتبعوه. وكان بين أنصاره الأولين فئة من الشبان ذوي الكرامة والمكانة. وفي قليل من الزمن جمع إليه ستين من صحابته، وجعل منهم نواة الهيئة التي بعثها لنشر دعايته والتبشير برسالته. أما هو فعاد إلى مسقط

رأسه ليرى أبويه وزوجته. وعبثاً حاولوا إقناعه للعدول عن دعوته –وقد قال لأبيه الذي عاب عليه استجداءه في الطرقات وذكره بسلالته الملوكية: "قد تدعي أنت وأسرتك التحدر من سلالة الملوك، وأما أنا فأنتسب إلى نسل بوذا منذ القدم، وهم قد عاشوا يستجدون طيلة حياتهم كلها". وظل أربعين سنة يجاهد في نشر دعوته وتثبيت النظام الذي وضعه متنقلاً من مكان إلى آخر، يتناول الطعام الذي يجود به عليه الخيرون من الأغنياء والفقراء، ويعلم كل من أقبل إليه للاسترشاد به. وفي الثمانين من عمره قضى نحبه. وله من الكلمات التي تفوه بها على سرير الموت ما خلده التاريخ. فهو القائل: "كونوا لأنفسكم نوراً، وملجأ حصيناً، ولا تلوذوا بغير أنفسكم"– "قد تفكرون في أنفسكم قائلين: الآن انتهت الكلمة بعد إذ قضى معلمنا، ولكن إياكم وهذا التفكير. واعملوا بعد موتي لتثبيت الناموس الذي علمتكم إياه والنظام الذي أرشدتكم إليه. وكونوا لأنفسكم خير المعلمين". وأما كلماته الأخيرة فهي: "أيها الشحاذون المستجدون: الآن أوصيكم بأن عناصر الإنسان وقواه ينبغي أن تذوب وتفنى، فتمموا خلاصكم بجد ومثابرة".

مؤثراته الشخصية

كان لأخلاق غوتاما الشخصية، أكبر الأثر في الدين الذي أسسه، ولو أن الكلمات التي اقتبسناها الآن تدلنا على أنه لم يومئ إلى نفسه بل إلى الحق الذي أعطاه. وقد كانت رقة نفسه وهدؤها، ومحبته للإنسانية، ورغبته في إنكار ذاته لتخفيف الآلام والأوجاع –كانت هذه كلها أفضل

العناصر في أخلاقه التي يرجع إليها أكبر الفضل في نشر تعاليمه. ونشاهد حتى اليوم، حيث تتحرر البوذية من الملابسات المتأخرة، ويبدو شكل بوذا مجرداً عن عوامل الاصطناع، شيئاً من هذه الصفات الأدبية في نفوس أتباعه والمؤمنين به.

وفي الكتب البوذية قصة تصلح مثلاً على كرم أخلاقه: يُروى أن فلاحاً برهمياً كان يحرث حقلاً، وإذا ببوذا يجيء إليه وفي يده وعاء يستعطي فيه فقال له الفلاح: "أيها الناسك: عليّ أن أحرث وأزرع، لأكسب عيشي. فعليك أنت أيضاً أن تكافح وتعمل ثم تأكل". فأجابه بوذا: "أيها البرهمي: أنا أحرث وأزرع، وبغير هذا لا آكل". فيقول له الفلاح: "لا أرى نيراً، ولا محراثاً، ولا منخساً، ولا ثيراناً". ويجيبه بوذا بعبارات شعرية قائلاً:

"أنا فلاح بحق، أيها السيد، والآراء الضائبة هي البذار المثمر الذي أبذره. وتدريب النفس هو المطر الذي أسقي به. أما الحكمة فهي نيري محراثي، والوداعة ميسي، والاهتمام بالغير محور عجلي، واليقظة منخسي...

"وبتهذيب الفكر والقول والفعل أنقي الأرض من أعشابها الضارة، وبطريق الخلاص أنادي...

"أما ثوري فهو السعي المتواصل الذي يحملني في غير ملل إلى حيث لا يصيبني حزن حتى أقرب إلى نرفانا، وهو الهدف الذي إليه أسعى".

عندئـذ يصـب الفـلاح البرهمـي الأرز الممـزوج باللـبن في وعـاء مـن الذهب ويقدمه إلى غوتاما قائلاً:–

"في الحق أنت فلاح بكل معنى الكلمة. وحصاد الحق هو طعامك الشهي. اشرب هذا يا سيد هنيئاً. وبعد اليوم أنا أطوع لك من بنانك".

الحقائق الأربع

وغوتامـا نفسـه ينكـر أنـه جـاء لينـادي مبـدئياً بنظـام في الآداب والأخلاق. ولكنه رغب في أن يقتبس البشر الحقائق الأربع التي تلقاها تحت الشجرة المقدسة، والتي هي أساس النظام الذي وضعه. أما هذه الحقائق فهي:

١– الألم أو الحزن: الولادة، والنمو، والمرض، والموت، وفراق الأحياء، وكل ما يتصل بوجود الفرد– هذه كلها تجيء عليها بالأحزان.

٢– علة الحزن: إن اهتياج العاطفة بعد ثورتها، واللذة في تملك الأشياء أو الرغبة في احتيازها، والشهوة، ومحبة العالم الحاضر، والشوق إلى عالم مستقبل– وقصارى القول الشهوات والرغبات، هي أصل آلامنا وأوجاعنا.

٣– أبطال الحزن: يبطل الحزن متى بطلت شهوة الحياة وانتفى الظمأ إلى هذه الأشياء.

٤– طريق إبطال الحزن: ولتحقيق هذا الطريق واحد، هو الحياة الفضلى المفكرة ذات الثماني شعب.

أما هذه الشعب الثمان هي:

الآراء السليمة، والشعور الصائب، والقول الحق، والسلوك الحسن، والحياة الفضلى، والسعي المشكور، والذكرى الصالحة، والتأمل الصحيح.

الأطوار الأربعة

ولهذه الطريقة أربعة أطوار (والبوذية حافلة بعدد لا يحصى من الأحكام والحقائق، والرذائل والفضائل، يعرفها البوذيون بالاسم، كما يعرف المسيحيون وصاياهم العشر). وفي خلال هذه الأطوار الأربعة تنكسر القيود العشرة. فالطور الأول هو الإحياء والتجديد حين يدرك الإنسان معنى الحقائق الأربع المشهورة. وعند بلوغ هذا الطور يقوى على كسر القيود الثلاثة الأولى- وهي الوهم الخادع في وجود النفس، والشك في بوذا وتعاليمه، والاعتقاد في تأثير الطقوس والرسوم الدينية. أما في الطور الثاني فيقوى المهتدي على التخفيف من حدة الشهوة والكراهية وغرور الأوهام. وفي الطور الثالث يحطم قيود الشهوة تحطيماً. وأما الطور الرابع فيسمى صراط المقدسين، وفي هذا الطور يتحرر القديس من القيود الباقية، وهي الرغبة في البقاء المادي وغير المادي، والكبرياء، والاعتداد بالبر الذاتي، والجهل. وعند بلوغه هذا الطور يكون قد وصل الهدف الذي يسعى إليه، وهو "نرفانا".

ما هي النرفانا؟

قلنا أن "النرفانا" هي الطور الرابع الذي يبلغه البوذي في مصارعاته وجهوده النفسية عن طريق الإذلال والتعبد. فما هي النرفانا هذه؟ الفكر السائد أنها الاندماج في الله والفناء فيه. ولكن البوذية لا تعرف إلهاً قط، وفكرة هذا الفناء في الإلهية غريبة غير مألوفة فيها. وكانت رغبة الفناء في الله من الرغبات التي تاقت إليها نفس غوتاما مؤسس البوذية، وهو يمارس أساليب إذلال نفسه قبل أن تستعلن له الرؤيا تحت ظلال الشجرة المقدسة. ولكن مطامعه قد تبدلت فيما بعد، أما النرفانا في عرف البوذي فهي الطور الرابع الذي يبلغه الناسك الزاهد بعد أن يكون قد حطم كل قيود نفسه وأغلالها، ورغب في شهوة البقاء، وتملكه عقل هادئ مطمئن لا يتسرب إلهي الخطأ، وتجرد عن كل الأماني والرغبات والجهالات وأسباب الخديعة والإغراء. بعد هذا كله يبلغ البوذي طور "النرفانا"، يبلغه في حياته على الأرض كما فعل غوتاما.

والحقيقة الأساسية في تعاليم مؤسس البوذية هي "ناموس العلة والمعلول". فالكون في نظره وحدة متصلة متماسكة، ومجموعة مركبة لا انفصام بين أجزائها. وهو مركب من مجموعة هائلة من العناصر المختلفة لا تزيد ولا تنقص بل يُعاد توزيعها باستمرار، ويعاد ترتيبها ووضعها بحكم الناموس الخاضعة له. وكل مجموعة جديدة إن هي إلا علة نشأت عن المجموعة التي تقدمتها. ولكن غوتاما لم يقل شيئاً عن تكل "العلة الأولى" الذي يدير دفة هذا الكون، ومحظور على البوذي التقي أن يبحث في هذا.

وكانت الصلة بين هذه الفكرة عن العالم، وبين طبيعة الإنسان في غاية الخطورة. فللإنسان، فضلاً عن كيانه الجسماني، خواص عدة هي المشاعر والأحاسيس والآراء والميول والقوى العقلية. وهذه الخواص، مقترنة بالكيان الجسماني، تكون ما نسميه "النفس" أو "الذات".

على أنه لم يكن في عرف "غوتاما" (خلافاً للبراهمة الذين صاغوا الفكر الهندوسي) شيء يدعى "الذات" أو "النفس". ومعنى هذا أن "غوتاما" لم يسلم بوجود "الذات" كشخصية موحدة. ولم ير إلا تلك المجموعة من الخواص أو الصفات الخاضعة للناموس الذي قلنا عنه فيما سبق ناموس "العلة والمعلول". وهذه الخواص والصفات توزع من جديد عند الموت. وانتقاء هذه الشخصية الموحدة يعني إنعدام الخلود بعد الموت. وما كان يقال أن "الذات" أو "النفس" تنعدم عند الموت. ذلك لأنه لم يكن لها وجود في الأصل. أما العناصر التي يتكون منها الإنسان فمصيرها عند الموت (في رأي غوتاما) التفكك والتجمع ثانية في وجود جديد في مجموعة جديدة.

والمفروض أن العناصر المكونة للإنسان ينبغي أن تخضع للناموس العام في الكون. ويتولد عن هذا الخضوع تناسق في المجموعة كلها. غير أن الأماني والرغبات في الذات البشرية هي التي تولد التنافر. وذلك لأن خواص الإنسان، من أحاسيس وميول وآراء، متى اتصلت بالعام الخارجي تخلق رغبة ملحة.

وهنا يحق القول أن كثيراً من هذه الرغبات والأماني صالحة لا غبار عليها، ولها ما يبررها. ولكن غوتاما لا يسّلم مطلقاً أن الرغبات والأماني قد تكون صالحة. فالرغبات عنده تنشأ عن الأعمال صالحة كانت أو شريرة، ولكنها تعمل على إقصاء النفس من الحياة المركزية في الكون. وعند الموت تُنتج الرغبة، التي يكون قد أشبعها الإنسان، وكذلك تُنتج الأعمال التي نشأت عنها، كائناً جديداً. فإن كان للإنسان شهوات حيوانية وحشية، تتجمع هذه العناصر كلها، وقد تخلق بعد موته حيواناً شرساً وحشياً كالنمر.

قلنا أن النرفانا هي الطور الذي يبلغه البوذي في حياته بعد أن يتجرد من أمانيه وجهالاته. فإذا مات الجسد تزول الأماني والرغبات ويسري عليها ناموس "الكرما"، أي أن كل عمل يأتيه الإنسان له ثمرته حتماً، وأن كل شيء يختبره في كل طور من أطوار الوجود المتكررة تقرره الأعمال التي يأتيها في الوجود السابق وهي بمثابة كفارة. فالنرفانا ليست في حد ذاتها موتاً، بل هي حالة في السلام المقيم، والقداسة الكاملة، والتجرد من الأماني، والرغبات ومن كل الأشياء التي تغري الإنساني على التشبث بهذا الكيان المستقل –هي جنة البوذيين التي ينعمون فيها بعد التطور الأدبي في الطريق ذي الشعب الثمان بأطوارها الأربعة.

ولذلك اكتفى بأن أعطى عامة الشعب مجموعة هائلة من التعاليم الأدبية والأحكام والوصايا التي أودعها كتبه وأسهب فيها بقصص ذات

مغـزى أدبي. وهـو يعتقـد أن قليلـين جـداً هـم الـذي يبلغـون النرفـانا في جهادهم الأخلاقي.

طبيعة الإنسان

وهنا نجمل ما أسلفنا من أفكار لنتبين حقيقة الفكرة البوذية عن الإنسان ونقارنها بالفكرة المسيحية: أنكر بوذا صراحة وجود النفس البشرية. وعنده أن الشخصية الظاهرة تتكون من خمسة عناصر– هي الخواص المادية، والحواس، والآراء المجردة، والميول السابقة، والأفكار. وهذه كلها تنحل عند الموت وتنفكك. ولولا وجود الرغبات، لما أمكن أن تتحد هذه العناصر مرة أخرى. ولكن هذه الرغبات (وهو لا يعني بها مجرد الرغبات الدنيا الحيوانية، بل يقصد الرغبات إطلاقاً ومنها رغبة الوجود الفردي المستقل) تسوق إلى العمل، والعمل يسوق –بدافع ناموس الكرما– إلى خلق شخصية جديدة، وإيجاد نواة جديدة تتجمع حولها عناصر النفس. ونظرية الكرما الهندوسية[١] أساسها أن للإنسان شخصية مفردة مستمرة متداولة في حياة متتابعة. ويظهر أن الشخصية في البوذية وهمية خيالية.

والدين المسيحي –كما لا يخفى– متصل باليهودية، لاحق لها. ولذلك يحسن أن نبدأ بفكرة أنبياء إسرائيل عن الإنسان وعن العالم، وهي من المخلفات الثمينة التي بقيت تراثاً للجنس البشري من أنبياء اليهودية.

---

(١) انظر فصل ٢.

فالعالم والإنسان مدينان بوجودهما –حسب الفكرة اليهودية– لله وهو مصدر بقائهما ودوامها. هو الخالق عز وجل. وبهذا المعنى لا يكون الفرد منبثقاً من الله ولا جزءاً منه. إنما الله متعال متسام فوقه. وكما أن هناك خطاً فاصلاً يميز الفرد عن أخيه في الإنسانية، كذلك هناك خط فاصل يميزه عن الله تعالى. وبين الشخصية الإنسانية والشخصية الإلهية شبه. لأن في الإنسان بعض ما هو إلهي بنسبة استجابته لنداء الله والاقتراب منه. ولكن ليس الإنسان جزءاً من الله. ولا هو عنصر من عناصر وجوده تعالى. كذلك ليس العالم جزءاً من الله، ولا مشاركاً له في الحدوث والقدم.

ولقد بحسب أنبياء إسرائيل العالم، الذي وضعهم فيه الله، ميداناً يتعلم فيه الإنسان بالاختبار، وهم لم يقبلوا العالم قبولاً سلبياً حسبوه مكاناً يُكافح فيه الشر وينشط فيه الخير. ومواهب الإنسان هي "الصداق" ليفعل ما يريده الله منه، فيغلب بذلك ضعفه ويتحول قوة، وتستقيم رغائبه وميوله وترقى إلى الأشياء السامية، حيث يفلت من التجربة والغواية. وما أبعد الفرق بين هذه الفكرة وبين نظرية "الكرما" والعالم الخيالي الوهمي في البوذية. ولقد آمن الأنبياء أن الخير والشر اللذين يحلان بهم هما بمثابة فرص سانحة للخدمة تُؤدي بالطاعة والرضا استجابة لدعوة الله، ولا وجه للاستحقاق الذاتي. وما كانوا ليستسيغوا قط فكرة تقول أن ما يحل بهم في الحياة إنما هو نتيجة أعمال وتصرفا وقعت في وجود سابق. ثم هم حسبوا هذا العالم أيضاً حقيقة خارج أنفسهم وذواتهم، عينها الله العزيز الحكيم. أما النظرية التي تجعل العالم وهماً وخيالاً تخلقه رغبات الإنسان فما كان لها

عندهم أثر، ولو أنها خطرت على بال أحد في يومهم لحسبوه إثماً وتجديفاً، بله بطلاً وسخفاً.

وهذه الفكرة قد افترضها العهد الجديد فرضاً. وأن حقيقة المسيح لتجعلها ألمع نوراً وأكثر شمولاً في بساطتها العميقة. ولكن معانيها الجوهرية تتفق تماماً مع إعلان الأنبياء. ويذهب العهد الجديد في تعليل أصل خطية الإنسان إلى أبعد مما ذهب إليه الفكر الإغريقي. فبينما ذهب الفكر الإغريقي الأرستقراطي إلى أن العقل هو جوهر الإنسان، عارضه في هذا الفكر المسيحي وذهب إلى أن الإرادة الأدبية هي مركز الدائرة. وليست الخطية في الإنسان مجرد جهل، ولا هي مجرد الانغماس في عالم مادي زائل. إنما هي معصية الإنسان الذي خُلق ليحب الله ويفعل مشيئته طواعية واختياراً. ثم أن الفساد الذي في قلب الإنسان، الذي خُلق على صورة الله، يُنظر إليه نظرة عميقة فاحصة. على أن المسيحية ليست ديناً أرستقراطياً، ولذلك لا شيء في العالم عندها تعدل قيمته تلك النفس البشرية، مهما أوغلت في الجهل، ومهما وهنت من الضعف والهزال.

* * *

وللبوذية نظام معين من حيث رجالها وخدامها. ولقد عرفنا من قبل أن "غوتاما" ذهب إلى أن الطريق إلى النرفانا والحياة الروحية السامية لن يبلغها إلا أشخاص أفرزوا أنفسهم لهذا الغرض. ولذلك وضع رتبة للنسّاك المتزهدين.

وكان محتماً على من يريد الدخول إلى إحدى رتب النظام الديني أن يستشير أولاً والديه. ويمكن قبوله في الثامنة من عمره. ولكنه لا يُرسم في وظيفته قبل العشرين. أما حفلة القبول فلا تخرج عن إجراء بعض الطقوس، وترداد بعض الألفاظ. ويُفرض على الناسك التبتل، ويحظر عليه الرقص والغناء والمسارح أو أخذ الفضة أو الذهب. ولا يأكل في اليوم إلا وجبة واحدة في الضحى. ويحمل في يده طبق الإحسان متنقلاً من بيت إلى آخر، لا يقول كلمة لأحد، ولا يؤثر الغني على الفقير عند طلب الإحسان.

وقد عاش أولئك النسّاك في الأديرة التي شُرع في تشييدها في زمن "غوتاما" نفسه وارتدوا الثوب الأصفر البسيط، أما عملهم فكان، علاوة على صيانة الأماكن المقدسة، الدرس والتأمل.

وليس لدينا من تاريخ البوذية المتأخر إلا القليل من المعلومات –منها أن إمبراطوراً شهيراً يدعى "اسوكا" بسط سلطانه على بلاد الهند كلها حوالي سنة ٢٥٠ق.م. وشجع البوذية بكل قواه، فكان لها كما كان الإمبراطور قسطنطين للمسيحية.

وفي الشمال حادت البوذية عن أصولها، ونسى القوم إنسانية بوذا، وأخذوا يبتكرون عدداً من الآلهة ذكوراً وأناثاً. واستحالت عقيدة بوذا القائمة على إنكار وجود الله، إلى عقيدة تعدد الآلهة الوثنية. وهكذا اضطربت العقائد في الجنوب، فبعدت كثيراً عن الأوضاع التي أرادها بوذا نفسه.

وأنكر بوذا الصلاة. ولكن أتباعه أخرجوا ما لم يبتدعه أي دين آخر، ألا وهو الصلاة الآلية القائمة على مجرد التكرار والملل. فكانوا ينقضون بعض الألفاظ السحرية على عجلات للصلاة يديرها الهواء أو قوة اندفاع الماء. وفي كل مرة تلف العجلة لفتها، وترتفع الكلمات المنقوشة نحو السماء، تُردد صلاة هي مجرد تكرار. ولو كان بوذا نفسه حياً لانتفض خجلاً من هذه الابتكارات الصبيانية.

كيف يكتمل هذا النقص في البوذية

وبعد هذا نرى كثيراً من الحق والخير في البوذية، وكثيراً من السخف والحماقة. ونرى بوذا نفسه رجلاً قد أحس بحاجة العالم، فقضى زمناً طويلاً في صمت وتفكير، وعانى نزاعاً روحياً عقلياً، وعاش حياة مجردة عن حب الذات، نقياً، طاهراً، صبوراً، رفيقاً.

ولكن ما أعظم الفارق بين صمته حيال بعض الأمور الخطيرة، وبين النور الوهاج الذي خلعته المسيحية عليها. فبوذا صمت ولم يذكر شيئاً عن الله. ولكن المسيح اقتاد البشرية إلى الله الآب. وقد رأينا في البوذية المتأخرة أن القوم نسوا إنسانية بوذا فاتخذوه معبوداً. وكل دين يقوم على إنكار الله يعرض نفسه للانهيار. ذلك لأن البشر لا يرضون نظاماً تنتفي فيه كل فكرة عن أصل الحياة ومنشئها ومصيرها. فإذا خلت السموات من ربها، بادر البشر على التوّالي ملئها بآلهة من مبتكرات خيالهم. فهذا الفراغ الذي أحدثه بوذا بإنكاره الله، تكمله المسيحية بالله الآب الذي أعلنه المسيح، الذي يجمع بين البشري والإلهي في رابطة من المحبة لا تنفصم وشائجها.

وأفكارنا الصائبة عن الله تتبعها حتماً أفكار صائبة عن الإنسان. فمن ناحية واحدة نرى "غوتاما" يرفع الإنسان إلى درجة سامية لا يدانيه فيها أحد. ولكنه من ناحية أخرى يخفضه إلى مرتبة وطيئة بنظرته المتشائمة في الحياة، وإقامته نظام التبتل والاستجداء، وامتهان الجسد البشري. وما أعظم الفارق بين التأمل في الجسد "كجثة متعفنة سريعة العطب والفناء"، وبين "اعتباره هيكلاً للروح القدس"! فالحياة في نظر "غوتاما" شيء كريه ينبغي التخلص منه والطهر من أوزاره، وأما "النرفانا" فهي لا شيء للإنسان العادي لأنه لن يقدر أن يبلغها، وهي في جوهرها أشبه بالفناء. وأنه لأنبل وأجدى أن نفكر في الشخصية البشرية وقد تطهرت وتهذبت شهواتها وميولها، من أن نفكر فيها وقد عدمت تلك الشهوات واندثرت. ومع احترامنا للناموس الأدبي الأخلاقي الذي وضعه بوذا، وما ترتب عليه من نتائج الإحسان والإشفاق المتبادل بين أتباعه، ينبغي ألا يغرب عن الأذهان أنه يقيم نوعاً سلبياً من أنواع الحياة. وهو لهذا عدو التقدم والرقي. ومن هنا كانت البلدان التي سادها الفكر البوذي أقل البلاد سعياً في ميدان الحياة، وأضعفها أثراً في اكتساب العالم إلى ملكوت الله.

وإن قلنا أن البوذية تجد في المسيحية ما ينقصها من إعلان مظهر الله الآب، وإعلان حقيقة الإنسان. فإنها تجد فيها أيضاً رسالة الخلاص من الخطية. ذلك لأن البوذية تفرض قواعد صارمة لبلوغ "الكرما". ويطغى على البوذية من جراء ذلك فكرة الناموس واستحقاق الشخص الذاتي. وبينا تقوم "الكرما" وازعاً إلى الصلاح ومانعاً عن الخطأ، فإنها تولد نوعاً من

الفضائل يظنها المرء مكتسبة بجهوده الخاصة وإذلال نفسه. وليس في البوذية أمل للنفس التي يشتد بها الصراع وتخور في العراك، ولن تمتلئ النفس بفكرة متعمقة عن قداسة الحياة، وشعور الحاجة إلى قوة تسند وتعضد في الصراع ضد الخطية، إلا متى تلاقت النفس وجهاً لوجه مع الله، وانتفت فكرة "الاستحقاق" الذاتي، وعمر القلب بفكرة الاتكال على صلاح الله وجوده. وهنا تشير المسيحية إلى ناموس المحبة. وربما يمج البوذي أكثر من سواه كل تعليم عن كفارة المسيح مما لا يأتلف مع شعور العدالة. ولكن حقيقة محبة الله الغافرة التي لا تتجاوز عن الخطية بل تحملها في نفسها، توقظ في قلب البوذي الشعور بالخطية، والحاجة إلى إعادة الصلة المنقطعة مع الله.

ففي البوذية كثير مما يعبد الطريق وبعدها لقبول المسيح. ومتى اخلص البوذيون لبوذا يصيرون إلى المسيح أكثر اقتراباً. لأن النموذج الأخلاقي الذي وضعه بوذا لا يعلو عليه نموذج آخر في المبادئ التي وضعها أصحاب الأديان الأخرى –سوى المسيح. والفارق أن بوذا دعا إلى ثقافة إنسانية، أما المسيح فقد أدخل حقيقة الله إلى حياة بني الإنسان.